القسم الأول

في المنهج والنظرية

الفصل الأول: حول المفاهيم والمصطلحات

(يهتم هذا الفصل بالجانب التنظيري، وفيه تحديد للمفاهيم والمصطلحات التي تنطلق من خلالها الدراسة التطبيقية، وبعض هذه المفاهيم تراثي النشأة، وبعضها نال حظا من الذيوع والانتشار في الآونة الخيرة تأثرا باللسانيات الغربية، ومن الإفادة البدء في تحديد هذه المفاهيم ودلالتها البحثية).

الخطاب لا يختلف المفهوم اللغوي المعاصر لمعنى الخطاب كثيرًا عن المفهوم الذي وضعه الرعيل للجملة والكلام على المستوى البنيوي الصرف. فالكلام عند ابن هشام هو: « كل لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه[١]» والجملة هي «الكلام» عند ابن جني[٢]، وتقابل «القول» عند سيبويه، أما الزمخشري فعرف الكلام بأنه المركب من كلمتين أسندت إحداهما إلى الأخرى[٣]، وينطبق هذا التعريف على المركب الاسمي أو الفعلي. ويقول الرضي: «والفرق بين الكلام والجملة، أن الجملة تتضمن الإسناد الأصلي سواء كانت مقصودة لذاتها أو لا، كالجملة التي هي خبر المبتدأ وسائر ما ذكر من الجمل.. والكلام ما تضمن الإسناد الأصلي وكان مقصودًا لذاته، فكل كلام جملة والعكس غير صحيح»[٤].

ويكاد يجمع كثير من المتحدثين عن الخطاب وتحليله على ريادة «هاريس» (١٩٥٢) في هذا المضمار من خلال بحثه المعنون بـ (تحليل الخطاب). إنه أول لساني غربي حديث حاول توسيع حدود موضوع البحث اللساني بجعله يتعدى الجملة إلى الخطاب[٥].

(١) ابن هشام: مغني اللبيب. بيروت، دار الفكر،١٩٧٩، ص ٤٩٠.
(٢) ابن جني: الخصائص. القاهرة، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٦، المجلد ١، ص ١٨.
(٣) الزمخشري: المفصل. بيروت، مكتبة الهلال ،١٩٩٣، ص ٦.
(٤) الرضي: شرح الرضي على الكافية. سوريا، دار المنتدى للطباعة والنشر، ١٩٩٨، ص ٢٥.
(٥) د/ مصطفى قطب: دراسة لغوية لصور التماسك النصي في لغتي الجاحظ و الزيات، رسالة دكتوراه، كلية دار العلوم، ١٩٩٦، ص ٨٠.

ويقدم البعض ثلاثة تحديدات للخطاب فهو، أولاً: يعني استعمال اللغة، أو اللسان الذي تتكفل بإنجازه ذات معينة في مقام معين، وهو هنا مرادف للكلام بتحديد دي سوسير[١].

وثانيًا: وحدة توازي أو تفوق الجملة من متتالية، ويتكون من الوحدات اللغوية، وهو هنا مرادف للملفوظ.

وثالثاً: يتجلى في استعمال الخطاب لكل ملفوظ[٢] يتعدى الجملة منظورًا إليه من وجهة قواعد تسلسل متتاليات الجمل. ومن هذه الزاوية فإن تحليل الخطاب يقابل كل اختصاص يرمي إلى معالجة الجملة كأعلى وحدة لسانية[٣].

وهكذا يغدو الخطاب تواصلاً لسانيًّا منظورًا إليه كإجراء يتم بين المتكلم والمخاطب أو كفعالية تواصلية يتحدد شكلها بواسطة غاية اجتماعية[٤]، والنص وظيفة نصية يتم فيه الربط بين الكاتب والقارئ[٥].

وقد تتآلف الجمل في الخطاب لتشكل نصًّا مفردًا، أو تتآلف النصوص نفسها في نظام متتابع لتشكل خطابًا أوسع ينطوي على أكثر من نص مفرد[٦].

ويظل بعد ذلك تركيز اللغوي على جانبين، الأول: أن النص معناه البنية السطحية النصية التي هي متوالية الجمل في تطورها وتتابعها، وأن العلاقة بين التركيب والإخبار هي المحور المركزي في بنية النص. والجانب الثاني: يتصل

---

(١) الكلام: عمل فردي، نابع عن إرادة وذكاء بحيث يمكن أن نميز فيه: أولًا: المجموعات التي بها يستخدم الفرد المتكلم رموز اللسان وقوانينه للتعبير عن فكرة الشخص. ثانيًا: الآلية النفسية المادية التي تسمح له بإخراج هذه المجموعات إلى حير السماع. انظر د. عبد الصبور شاهين: في علم اللغة العام. القاهرة، مكتبة الشباب، ص ٤٣.

(٢) الملفوظ: هو جملة ما يتلفظ به الإنسان، ويكون محددًا ببداية ونهاية كأن يكون محصورًا بين سكوتين في الخطاب الشفوي أو بين علامتي ابتداء وانتهاء في الخطاب المكتوب، والملفوظ بذلك يكون جملة أو فقرة أو نصًّا.. ويطلق على صاحبه اللافظ. د. عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب. القاهرة، دار سعاد الصباح، ١٩٩٤، ص ١٩٤.

(٣) د/سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي، بيروت، المركز الثقافي العربي، ص٢١.

(٤) السابق، ص٤٤.

(٥) د/سعيد يقطين: انفتاح النص الروائي (النص – السياق)، الدار البيضاء ١٩٨٩، ص ١٣.

(٦) إديثكر يزويل: عصر البنيوية، ترجمة جابر عصفور. القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ص ٣٧٩.

بالجوانب الفيزيقية للنص، مثل الخط، وتقسيم الفقرات والفصول، والصفحات، وهو ما يحمل اسم الجانب الكتابي.[١]

والخطاب عند بعض اللسانيين مصطلح لساني يتميز عن النص والكلام والكتابة وغيرها، فالبعض[٢] يعقد مقارنة بين النص والخطاب، وأن النص بنية مترابطة تكون وحدة دلالية. في حين أن الخطاب ينبغي النظر إليه على أنه موقف ينبغي للغة أن تحاول العمل على مطابقته، وعلى ذلك فإن الخطاب أوسع من النص، فالخطاب ليس بنية بالضرورة، ثم إن غلبة النص على المكتوب، والخطاب على الملفوظ ليس حاسمًا، فأحدهما يلتبس بالآخر على سبيل التوسع، والخطاب يتميز بالطول في حين أن النص قد يطول وقد يقصر[٣].

والخطاب عند البعض كلام موجه إلى متلق بقصد الإقناع والتأثير، أو المشاركة الكلامية بين طرفي الاتصال[٤] حوارًا أو مشافهةً أو كتابةً للتأثير والإقناع، وتحقيق مقاصد اتصالية، ويعني كذلك حديثًا وخطابًا موجهًا ومحاضرةً ومقالةً ورسالة[٥]، ويدخل فيه المحاورة والحجاج والمناظرة، وكل أشكال التفاعل اللغوي في التواصل الاجتماعي سواء أكان منطوقًا أو مكتوبًا.

وحمل معنى الخطاب على بنية النص وتراكيبه، وبعض العلماء يريد النص كله، وبعضهم يميزه في جملة موجهة، وبعضهم يراه في شكل لغوي موجه .[٦]

لكن التحديد كان أكثر وضوحًا في التفرقة التي قدمها الدكتور مصطفى قطب بين النص والخطاب في إطار تعريفه لمفهوم النص، يقول: «النص وحدة

(١) د/سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي، ص ٤٣، وانظر د. مصطفي صلاح قطب: دراسة لغوية لصور التماسك النصي، ص ٨١، ٨٢.

(٢) د/ محمد العبد: النص والخطاب والاتصال. القاهرة، الأكاديمية الحديثة، ٢٠٠٧، ص٧.

(٣) المصدر السابق، ص ١٢.

(٤)

(٥) د/ محمود عكاشة: لغة الخطاب السياسي، ص ١٧-٢٠.

(٦) د/محمود عكاشة: خطاب السلطة الإعلامي، ص ٧١, د/ عبد الله إبراهيم: إشكالية المصطلح النقدي، في الخطاب والنص. بيروت، المركز الثقافي العربي ، ص٦٢.

مجردة لا تتجسد إلا من خلال الخطاب» بوصفه فعلاً تواصليا، وفي إطار هذه العلاقة يتم الربط بين النص كإعادة بناء نظري مجرد، وبين سياقه التداولي (سياق التواصل) كما يتجلى من خلال الخطاب. فالنص مجموع البنيات النسقية التي تتضمن الخطاب وتستوعبه».[1]

ونستطيع أن نقدم عدة خصائص للخطاب من خلال التعريفات السابقة:

١- أنه كما تتفق حول ذلك معظم التعريفات، وحدة لغوية أشمل من الجملة، فالخطاب تركيب من الجمل المنظومة طبقًا لنسق مخصوص من التأليف.

٢- أن الخطاب نظام من الملفوظات، والتأكيد على المظهر اللفظي للخطاب يتحدد أصلاً من اشتغال علماء اللغة على الكلام بوصفه مظهرًا لفظيًّا خاصًّا بالفرد، وكونه أكثر المظاهر الإشارية تعبيرًا عن اللغة التي يعتمدون عليها بوصفها قاعدة معيارية عامة.

٣- أخيرًا، إن متلقي الخطاب لابد أن يستشف المقصد الذي ينطوي عليه، وأن يتمثل الرسالة الدلالية التي تكمن فيه، وذلك لكي تكتمل دائرة الاتصال، وهنا لابد أن تحضر أيضًا مكونات أخرى من عناصر نظرية الاتصال كالشفرة والسياق، لكي ينفذ قصد القائل إلى المتلقي.

ويعد تحليل الخطاب أكثر النظريات تطورًا في دراسة النص، وقد ظهرت حديثًا متأثرة بمناهج البحث العلمي الحديثة، وتهدف النظرية إلى إعطاء وصف صريح ومنظم للوحدة اللغوية موضوع الدراسة، والهدف من ذلك مساعدة المتلقي في معرفة الخطاب، وفهمه فهمًا يتناسب والسياقات الاجتماعية، ولهذا الوصف بعدان هما: النص والسياق، والنص يمثل بنية الخطاب، والسياق، يدخل

(١) د/ مصطفى صلاح قطب: دراسة لغوية لصور التماسك ٧١-٧٢.النصيفي لغتي الجاحظ والزيات. رسالة دكتوراه، سنة ١٩٩٦، كلية دار العلوم.

فيه التنبيه والعالم الخارجي، وظروف إنتاج النص والمشاركون فيه وزمنه و مكانه.[١]

الخطاب الحجاجي:

جنس خاص من الخطاب، يبني على قضية أو فرضية يعرض فيه المرسل دعواه مدعومة بالتبريرات، عبر سلسلة من الأقوال المترابطة ترابطًا منطقيًّا قاصدًا إلى إقناع الآخر بصدق دعواه والتأثير في موقفه أو سلوكه تجاه تلك القضية، وتكون فيه العلاقة بين أجزاء النص علاقة منطقية أكثر من كونها تصورية، كما هو الحال في النص غير الحجاجي، ويبنى النص الحجاجي في شكله الرئيس على مكونات ستة هي الدعوى أو النتيجة والمقدمات والتبرير والدعامة، ومؤشر الحال والتحفظات[٢].

الاتصال:

يعرف «سوونسكي» الاتصال بقوله: هو نقل المعلومات بين الأفراد نقلاً مقيدًا بقناة محددة، وهو أيضًا نظم صناعة الأخبار بواسطة العلامات. ويعرف «هوكيت» الاتصال بأنه المؤشر على إحداث استجابة. ويبنى تعريف «سوونسكي» على أهم مكونات الحدث الاتصالي: المحتوى (وجود معلومة) والمشاركين (ينقلها مرسل إلى مستقبل) والقناة (من قناة اتصال بعينها سمعية أو بصرية.. إلخ) والقصد من القناة هي طريقة الاتصال ، ويقصد بالبصرية الاتصال اللفظي المكتوب. ويدخل ضمن التعريف السابق الاتصال اللفظي، وهو الاتصال الذي يستخدم العلامات اللغوية وسيطًا له[٣].

(١) د/ محمود عكاشة: خطاب السلطة الإعلامي، ص ٢٢ - ٢٣.
(٢) د/ محمد العبد: النص والخطاب والاتصال، ص ١٩٨ وما بعدها.
(٣) د/ محمد العبد: العبارة والإشارة، ص ١٠، ص ١٥.

ويلخص «ويدوسون» نقلاً عن «ريلي»، عملية الاتصال في قوله: يطلق مصطلح الاتصال حين يحدد مستعمل اللغة موقفًا يتطلب منه نقل معلومات معينة لتحقيق التقارب المعرفي بين الأفراد، ومن ثم يمكن أن يتغير هذا الموقف بشكل أو بآخر. وهذا الإجراء أو هذه العملية تتطلب التفاوض أو تبادل وجهات النظر حول المعاني خلال التفاعل بين الأفراد، وأطلق على هذا الشكل من التفاوض لفظ «الخطاب»[١].

كذلك يقصد بالاتصال العملية التي يتم عن طريقها انتقال المعرفة من شخص لآخر حتى تصبح مشاعًا بينهما، وتؤدي إلى التفاهم بين هذين الشخصين أو أكثر، وبذلك يصبح لهذه العملية عناصر ومكونات، ولها اتجاه تسير فيه، وهدف تسعى إلى تحقيقه، ومجال تعمل فيه ويؤثر فيها، مما يخضعها للملاحظة، والبحث، والتجريب والدراسة العملية بوجه عام.[٢]

نظرية الاتصال

هي نظرية تهتم بدراسة مكونات الحدث الاتصالي، مثل المحتوى، والمشاركين والقناة الاتصالية، وتتخذ هذه النظرية مجموعة من الخطوات أو التصنيفات، منها تصنيف «رومان جاكبسون١٩٦٠»، والذي يرى أن أي حدث اتصالي يتشكل من مجموعة من العوامل هي أن المرسل يبث رسالة إلى المرسل إليه، وتحتاج هذه الرسالة إلى سياق تشير إليه، وتحتاج الرسالة إلى الشفرة المشتركة كليًّا أو جزئيًّا بين المرسل والمرسل إليه، وتحتاج هذه الرسالة إلى الاتصال أي إلى القناة الاتصالية الموجودة بين المرسل والمرسل إليه.[٣]

---

(١) InRiley, P. (ed) Discourse and Learning Language or Learning to Read:Gremm, MLearning, London, Longman, 1983 , P.7.

(٢) د/ حسين محمدي الطوبجي: وسائل الاتصال والتكنولوجيا في التعليم. الكويت. دار القلم، سنة ١٩٨٢. ص ٢٥.

(٣) جاكبسون: النظرية الألسنية ، ص ٦٥، للاتصال مكونات عدة، من أهمها القناةchannel والمشاركون participants والوضع settingوالغرض purposeوالشفرات Codes ومضمون الرسالة وشكلها ، العبارة و الإشارة، ص ١٢.

الكفاية اللغوية

من المفاهيم التي أدخلها «تشومسكي» في دراسته التوليدية التحويلية للغة، ويفرق تشومسكي طبقًا لهذا المفهوم بين ما يعرفه متكلم لغة ما معرفة ضمنية وهو ما يسمى بالكفاية، وما يفعله بهذه المعرفة، وهو ما يسمى بالأداء، فالكفاية اللغوية إذن «نظام من القواعد والمبادئ التي تمثل تمثيلاً عقليًّا، والتي تمكن المتكلم من فهم جمل حية تمكنه من التعبير عن أفكاره، إذ ترتبط الأصوات بالدلالات، وينتمي إلى كفاية المتكلم النحوية قدراته التركيبية والدلالية والفونولوجية، التي تقضي بتطابق التعبيرات مع ما تعبر عنه في لغة بعينها».[١]

الكفاية الاتصالية:

هو البديل المنهجي للكفاية اللغوية، ويقصد « هايمز» بالكفاية الاتصالية «مقدرة المتكلم على إنتاج منطوقات مناسبة لأنماط المواقف الاتصالية المختلفة[٢].

وفي مجال الحديث عن المدخل الاتصالي تطرح عادة التفرقة بين مدخلين شائعين من مداخل تعليم اللغات الأجنبية يقف كل منهما مقابل الآخر. أحدهما مصطلح «الكفاية اللغوية» والثاني مصطلح «الكفاية الاتصالية» ولكي تتضح الفروق بينهما ينبغي استعراض بعض التعريفات الشائعة لمفهوم «الكفاية الاتصالية».

وبادئ ذي بدء تنبغي الإشارة إلى أن صاحب هذا المصطلح هو «ديل هايمز» الذي صاغه ليقابل به مفهوم الكفاية الذي طرحه «تشومسكي» كما

(١) د/ محمد العبد: النص والخطاب والاتصال، ص ٢٣.
(٢) د/ محمد عناني: المصطلحات الأدبية الحديثة. القاهرة. لونجمان، ٢٠٠٠، ص ٧٦.

صاغه ليشمل الإلمام بقواعد علم اللغة الاجتماعي أو مناسبة الحديث للسياق الاجتماعي بالإضافة إلى الإلمام بالقواعد النحوية.

فالمصطلح إذن، في رأي «هايمز» (١٩٦٢) يشير إلى القدرة على نقل رسالة أو توصيل معنى معين، والجمع بكفاءة بين معرفة القواعد اللغوية والقواعد الاجتماعية في عملية التفاعل بين الأفراد.

وينقل «شتيرن» عن «هايمز» تصوره للكفاية الاتصالية قائلاً: إن «الكفاية الاتصالية» تعني تملك الناطق باللغة للحدس، أو البديهة التي تمكنه عند الكلام من استخدام اللغة، وتفسيرها بشكل مناسب في أثناء عملية التفاعل، وفي ضوء السياق الاجتماعي فإن الكفاية تعني أن يعرف الفرد بدقة متى يتكلم؟ ومتى لا ينبغي أن يتكلم؟ وما الذي يتكلم حوله؟ ومع من؟ ومتى؟ وأين؟ وبأي طريقة كان أسلوب الحديث ؟[١] و يرى «كريستال» في دائرة المعارف اللغوية أن الكفاية الاتصالية تعني«وعي الفرد للقواعد الحاكمة للاستعمال المناسب في موقف اجتماعي»[٢].

ويقول «ويمان»: إن «الكفاية الاتصالية» هي قدرة الفرد على التفاعل مع أشكال السلوك الاتصالي المتاحة، حتى يمكن تحقيق أهدافه من الاتصال بالآخرين بنجاح خلال مواجهة بينهم في إطار قيود ومتطلبات الموقف[٣]. وفي ضوء هذا تخلص «ساندرا سافجنون» إلى سمات أو خصائص معينة للكفاية الاتصالية من أهمها:

---

(١) Stern, H.H.:Fundamental Concepts of Language teaching, Oxford, Oxford University Press 1983 , P 56.

(٢) Crystal, D. The Cambridge Encylopedia of Language, Cambridge, Cambridge University P. 23, 1989.

(٣) I.d.p. 16.

١ - أنها مفهوم متحرك، وليس ساكنًا فهو يعتمد على مدى قدرة الفرد على تبادل المعنى مع فرد آخر أو أكثر. إنها إذن علاقة شخصية بين طرفين أكثر من أن تكون اتصالاً ذاتيًّا بين الفرد ونفسه.

٢ - الكفاية الاتصالية تنطبق على كل من اللغة المنطوقة والمكتوبة، وكذلك نظم الرموز المختلفة.

٣ - تتطلب الكفاية الاتصالية أن تكون محددة بالسياق، ولذلك فهي تبغي القدرة على الاختيار المناسب للغة والأسلوب في ضوء مواقف الاتصال والأطراف المشتركة.

٤ - إن هناك فرقًا بين الكفاية والأداء، فالكفاية تعني القدرة المفترض وجودها والكامنة وراء الأداء، في حين يعتبر الأداء التوضيح الظاهر أو المكشوف لهذه القدرة، إن الكفاية هي ما تعرف، أما الأداء فهو ما تفعل «إنه الإنتاج الفعلي للغة»، وهو الشيء الوحيد الذي يمكن ملاحظته، وفي ضوئه تتحدد الكفاية وتقوى[١].

الكفاية الاتصالية إذن ليست مجرد القدرة على استيعاب نظام اللغة، أو حتى استخدامه بشكل مطلق، بل إنها عملية فردية اجتماعية معًا، فردية حين تتعلق بالأساليب الخاصة للفرد لمواجهة المواقف، واجتماعية حين تتعلق بالسياق الذي يتم فيه الاتصال[٢].

التداولية يقصد بها الفرع العلمي من مجموعة العلوم اللغوية الذي يختص بتحليل عمليات الكلام بصفة خاصة، ووظائف الأقوال اللغوية وخصائصها

---

(١) Savignon, S.: Communicative Competence. Theory and Classroom Practice, Reading ,Adison , Wesley Publishing Company 1983 p.9-10.

(٢) د/رشدي أحمد طعيمة: تحليل المحتوى في العلوم الإنسانية. القاهرة، دار الفكر العربي،١٩٩٨، ص ١٢٠.

خلال إجراءات التواصل بشكل عام[١]. فهي تعالج قيود صلاحية أفعال كلامية وقواعدها بالنسبة لسياق معين، وبعبارة أكثر إيجازًا تدرس التداولية العلاقة بين النص وسياقه[٢].

فهي تعني بالشروط والقواعد اللازمة بين أفعال القول، ومقتضيات المواقف الخاصة به، أي العلاقة بين النص والسياق.

وإذا كان السياق لا يشمل من الموقف إلا تلك العناصر التي تحدد بنية النص، وتؤدي إلى تفسيره، فإن التداولية هي العلم الذي يعني بالعلاقة بين بنية النص وعناصر الموقف التواصلي المرتبطة به بشكل منظم، ويرى فان ديك أن التداولية يجب أن تسهم إسهامًا مستقلاً في تحليل الشروط التي تجعل العبارات مقبولة جائزة في موقف معين[٣].وهي من الدراسات التي تطورت إبان سبعينيات القرن العشرين[٤] وهي تبحث في كيفية فهم الناس، وإنتاجهم لفعل تواصلي أو فعل كلامي في إطار موقف كلامي ملموس ومحدد.

وتميز التداولية بين معنيين في كل ملفوظ أو فعل تواصلي لفظي، الأول هو القصد الإخباري أو معنى الجملة، والثاني القصد التواصلي أو معنى المتكلم، ويطلق على القدرة على فهم فعل تواصلي وإنتاج « الكفاءة التداولية» والتي تتضمن معرفة المرء بالمسافة الاجتماعية والمرتبة الاجتماعية بين المشاركين في

(١) يعتبر تعريف مورس أقدم تعريف للتداولية، فالتداولية مستوى تحليلي يعالج العلاقة بين العلامات ومستعملي هذه العلامات. ويعرفها «آن ماريدي ، وفرانسوا ريكاناتي بأنها: «دراسة استعمال اللغة في الخطاب» أما فرانسيس جاك فالتداولية عنده ظاهرة خطابية، وتواصلية، واجتماعية انظر: المقاربة التداولية , ترجمة د. سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، ١٩٨٩ ص ٨٠.

(٢) تون. أ. فان ديك: علم النص (مدخل متداخل الاختصاصات)، ترجمة د. سعيد حسن بحيري. القاهرة، الدار العلمية، ٢٠٠١، ص ١١٤.

(٣) (فان ديك: النص و السياق (استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي) ترجمة د. عبد القادر قنيني. بيروت، أفريقيا الشرق، ٢٠٠٠، ص٢٥٧.

(٤) عرفت الدراسة التداولية سابقًا بأنها «قمامة اللسانيات» وهذا يعني أن مهمة التداولية معالجة المشاكل اللغوية الهامشية، غير أن هذا الأمر قد تغير، وخصوصًا بعد محاضرات كرايس ١٩٦٧، والتي فتحت آفاقا أرحب، وأنتجت أسئلة جديدة كانت مسوغًا للاعتراف بالتداولية كأحدث بحث أفردته اللسانيات الحديثة، وهو البحث الذي يولي أهمية قصوى للشروط الخارج لغوية والمتعلقة بالسياق والمقام والمتكلمين ومقاصدهم، وحيثيات الاستعمال والأفعال اللغوية. انظر مقبول إدريس: البعد التداولي عند سيبويه. دراسة تداولية، عالم الفكر، ع١، مج ٣٣، ص ٢٤٥.

الموقف، وكذلك المعرفة الثقافية والمعرفة اللغوية الظاهرة والضمنية، ومن بين مظاهر اللغة التي تدرسها التداولية «المشيرات»، والتي تشير إلى المعنى السياقي للضمائر، ومفردات المكان والزمان، وتدرس التداولية أيضًا ما يسمى بالأفعال الإنجازية (أي نظرية أفعال الكلام)[١]، والتي تنص على أن الحدث الكلامي يتضمن ثلاثة أنواع من الأفعال، فعل لفظ، فعل إنجاز، فعل تأثير، فضلاً عن ذلك تهتم الدراسة التداولية بدراسة السبب في نجاح المشتركين في الموقف الكلامي في التخاطب والتحادث مع بعضهم البعض[٢].فمثلًا في قوله تعالى: (وأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ) نجد الفعل اللفظي في الجانب الصوتي وارتباطه بمفردات ترتبط بالعطاء المعجمي، وتخضع لقواعد بعينها في اللغة، أما الفعل الإنجازي فهو الأمر أو النصح بأن أعرض عند الجاهلين، أما الفعل التأثيري، فهو ما ينتج عن الفعل الإنجازي من إقناع المخاطب.[٣]

الموقف الاتصالي:[٤]

يعبر عن أي ظرف أو موقف يتم فيه اتصال أو يستدعي وقوع اتصال أو موضوع للخطاب بالموقف الاتصالي ، و الذي يشمل تحديد المكان والزمان والأسباب التي دعت إليه[٥]. ومعنى ذلك أننا نستطيع أن نقول إنه لا مجال في أن تنماز مواقف اتصالية على أخرى[٦]، لأن كل مواقف الاتصال تقع ضمن حيز مكاني وتوقيت زماني وأسباب داعية ومحرضة عليها.

(١) انظر في توضيح هذه النظرية كيف ننجز الأشياء بالكلمات؟ د. / محمد حسن عبد العزيز. مجلة كلية دار العلوم، ع ١٨، ١٩. ص ٨٢.

(٢) في جملة التعريفات التي قدمت لنظرية الاتصال يراجع كتابي د/ محمد العبد: العبارة والإشارة، ص ٥٥ – ٩٦، وكتابه: النص والخطاب والاتصال، ص ١٥– ٨٥، مقبول إدريس: البعد التداولي عند سيبويه. دراسة تداولية، ص ٢٤٠.

(٣) د. محمد العبد: النص والخطاب والاتصال، ص ٢٨٥.

(٤) يميل الدكتور العبد إلى تسمية الموقف الكلامي بالموقف الاتصالي حتى يتسع المصطلح لوسائل الاتصال غير اللفظي بأنماطها المختلفة. انظر العبارة والإشارة، ص ٥٥ .

(٥) د/يوسف نور عوض: علم النص ونظرية الترجمة. مكة المكرمة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ص ٥٠.

(٦) العبارة والإشارة، ص ٥٤.

وهذا الموقف الاتصالي يسمى عند « ديبوجراند» برعاية الموقف، ويعني به مجموعة العوامل التي تجعل النص مرتبطًا بموقف سائد يمكن استرجاعه، حيث يأتي النص في صورة عمل يراقب الموقف أو يغيره، وقد لا يوجد إلا القليل من الوساطة في عناصر الموقف كما في حالة الاتصال بالمواجهة المباشرة، وكذلك في شأن أمور تخضع للإدراك المباشر[١].

الحدث الاتصالي:

هي الوحدة الصغرى للاتصال، والتي تخضع لغايات التحليل[٢]التي يمكن أن يتضمن داخلها خطاب معين، مثل حدث تهنئة أو اعتذار أو استخبار أو تحية أو مداخلة شخصية، ويمكن أن يمتد الحدث الاتصالي من كلمة مفردة إلى خطاب كامل[٣].

ويتكون الحدث الاتصالي من مجال الخطاب أو موضوعه، سواء أكان سياسيًّا أم اجتماعيًّا أم دينيًّا أم مزيجًا من هذه الموضوعات، مع تحديد الغرض من الخطاب، وتحديد الزمان، والمكان، وكل ما يحيط بالحدث ويساعد في تفسيره، ثم دراسة المشاركين في الحدث (المرسل، المتلقي) من ناحية الجنس والعمر والثقافة والنوع والوضع الاجتماعي والوظيفة وعلاقة المرسل بالمتلقي، وعلاقة المتلقين ببعضهم البعض[٤].

كذلك من مكونات الحدث الاتصالي تحديد نوع الخطاب أو صيغة الرسالة، وهل هو مكتوب أو منطوق، به حركات تفسَّرُ إشاريًّا أم لا؟ ثم محتوى الرسالة أو المضمون والأفكار التي تتضمنها الرسالة، ثم تسلسل الكلام وترتيب

(١) ديبوجراند: النص والخطاب والإجراء. ت. د/ تمام حسان، ص ١٠٤.
(٢) د/محمد العبد: العبارة والإشارة، ص ٧٥.
(٣) المصدر السابق، ص ٥٧.
(٤) د/ محمود عكاشة: لغة الخطاب السياسي، ص ٤٩.

الموضوع والمدخل إليه والخاتمة، وطريقة تنسيق الأفكار وأدوار المشاركين في الخطاب، ثم دراسة الأصول الاجتماعية التي تراعى في الكلام، والتي تختلف باختلاف المتكلمين[١].

و يساهم في دراسة الحدث التواصلي أيضًا الموقف الكلامي، والذي يقترب في دراسته من أسس دراسة السياق كما وضعها علماء لغة النص[٢] على أن الواقعة الكلامية بأطرافها الثلاثة لا تدرس بمعزل عن السياق، فينبغي أن تدرج كل المواقف على أنها سياقات في تبليغ قوانين التكلم، حيث ينظر إليها على أنها مواقف تخدم سياقات بعينها[٣].

الواقعة الاتصالية

يقصد بالواقعة الاتصالية الأنشطة التي تحكم مباشرة بقوانين استعمال الكلام، وتضم الواقعة الاتصالية الموقف والحدث الاتصالي، ومعنى ذلك أن الواقعة الاتصالية تعد هيئة أو مناخًا يضم في داخله أحداثًا ومواقف اتصالية، فالحفلة المدرسية مثلاً تعد موقفًا اتصاليا، لكن خطابات التلاميذ والحضور في أثناء الحفلة وقائع اتصالية.

على أننا نستطيع أن نميز بين ثلاثة مفاهيم أساسية هي: الموقف والسياق و السياق الموقفي، أما الموقف فهو الذي يبنى على كل العوامل الاجتماعية والثقافية والفيزيقية والسلوكية الحركية التي تصاحب الحدث الاتصالي بين المشاركين فيه، والعلاقات بينهم، ومكان الاتصال وزمانه ومدته، والمسافة الفاصلة بين المتكلم والمستمع ونحوها.أما السياق، فيختص بالسياق اللغوي، أي

(١) المصدر السابق، ص ٥.
(٢) د/ عزة شبل محمد أبو العلا: علم لغة النص بين النظرية و التطبيق. القاهرة، مكتبة الآداب، ٢٠٠٧، ص ١٠- ٢٤.
(٣) العبارة والإشارة، ص ٥٦. في تعريف السياق وعلاقته بالنص انظر د/ حسام أحمد فرج: نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النص النثري، مكتبة الآداب، ٢٠٠٧. ص ٢٤- ٣٤.

بالمحيط اللغوي للمنطوق أو النص، بما فيه من علاقات نحوية ومعجمية ودلالية تربط بين الكلمات والجمل وأجزاء الكلام، مما يبرز أثره في ترابط المنطوقات وتماسكها، من أجل إنجاز المضمون أو المقصد.وأما السياق الموقفي فهو مبني على أثر العوامل المحددة للموقف في استخدام تنوع لغوي بعينه دون الآخر. ويختص الموقف بالاتصال اللفظي المنطوق، ويختص السياق بالاتصال اللفظي المكتوب. أما السياق الموقفي فهو مشترك بين كلا النوعين، ولكن يدل عليه فيزيقيا في الاتصال المنطوق، في حين يخبر عنه لفظيًّا في الاتصال المكتوب.(١)

الاتصال عند اللغويين العرب

الاتصال لغة من «و ص ل» ومن معانيها: بلغ وانتهي، حيث يقال: «و ص ل» أي (وصلت) الشيء من باب وعد و «صلة» أيضًا و «وصل» إليه يصل وصولاً أي بلغ واتصل قال تعالى: (**إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ**) [النساء: ٩٠]/ (أي يصلون)، ومنه (وصل الشيء بغيره فاتصل، ووصل الحبال وغيرها توصيلاً، وصل بعضها ببعض، وصلت شعرها بشعر غيرها، وفي الحديث«لعن الله الواصلة والمستوصلة». حيث يقال: «..... ووصل إلى بني فلان واتصل. قال الأعشى:

إذا اتصلت قال: أبكر بن وائل وبكر سبتها والأنوف رواغم

وقد تأتي بمعنى «علم، تلطف» وهذا بحسب السياق الذي ترد فيه. أما التواصل فهو من «تواصل» على وزن تفاعل الذي يدل على: المشاركة بين اثنين فأكثر، مثل: تقاتل زيد وعمرو. التظاهر: ومعناه الادعاء بالاتصاف بالفعل مع انتفائه عنه، مثل: تناوم - تكاسل - تجاهل - تعامي... الدلالة على التدرج أي حدوث الفعل شيئًا فشيئا، مثل: تزايد المطر - تواردت الأخبار. المطاوعة: وهو يطاوع وزن «فاعل»، مثل: باعدته فتباعد. ويشترك «الاتصال» و «التواصل» في

(١) العبارة والإشارة، ص ٩٧، ٩٨.

الجذر اللغوي «وصل» وكلاهما مصدر، فالأول «اتصال» للفعل المزيد «اتصل» على وزن «افتعل»، والثاني: «تواصل» للفعل المزيد «تواصل» على وزن «تفاعل». ويقع الاختلاف بين المعنيين نتيجة للبنية الصرفية، فوزن افتعل وإن كان من معانيه كما يقول الصرفيون «الاشتراك» فإن فعل «اتصل» لا يدل على هذ المعنى، لأنه يقع من فاعل واحد، وهو لا يتعدى في معناه الوضعي مجرد إقامة علاقة مع شيء أو شخص عن طريق وسيلة معينة، ولا يدل على معنى التواصل، ويستخدم البعض مصطلح تواصل بدلاً من اتصال لأسباب منها:

- أن اللغة تواصل لا اتصال، لأن الاتصال يكفي لحدوثه إرسال من طرف واحد، وليس كذلك التواصل، بالإضافة إلى انطواء التواصل على قدر كبير من القيم الاجتماعية والإنسانية.

- الاتصال علاقة فردية تتم بين طرف واحد في حين أن الحياة لا تستقيم إلا بأن نتبادل مع الآخرين مشاعرهم وأفكارهم.

- أن كل صور التواصل القائمة في الحياة سواء أكان في وسائل الإعلام أو الكتابات الأدبية أو حتى الحوار الداخلي كلها مبنية على صورة التواصل بين الطرفين[1].

كان للعلماء العرب إسهامات كبيرة في التقعيد لنظرية الاتصال اللغوي، وإن لم يكن الإطار التقليدي لها قد تبلور بعد، كما هو في الدراسات اللسانية الغربية، ويعد حديثهم عن وظيفة اللغة والمبدع والمتلقي والرسالة وظروف الاتصال بداية دراسات لنظرية تواصل عربية أصيلة ومن هؤلاء الأعلام:

(١) انظر : مختار الصحاح، لأبي بكر الرازي، ص٧٢٣، لسان العرب، لابن منظور، ص ٧٦٣، أساس البلاغة، ص ٦٧٨.

الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ):

قدم الجاحظ تعريفين للغة بوصفها توصيل واتصال، أحدهما من لغة التواصل بين أنواع الحيوان، والتي يقسمها إلى فصيح وأعجم في كتاب الحيوان، فالفصيح هو الإنسان، أما الأعجم فهو الحيوان أو «كل ذي صوت لا يفهم إرادته إلا من كان من جنسه»[١]. وفي كتابه البيان والتبيين، يقدم الجاحظ تعريفًا أكثر إسهابًا عن اللغة ووظيفتها: «المعاني القائمة في صدور العباد، المتصورة في أذهانهم، و المختلجة في نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم، والحادثة عن فكرهم، مستورة خفية، وبعيدة وحشية، ومحجوبة مكنونة، وموجودة في معنى معدومة، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه وخليطه، ولا معنى شريكه، والمعاون له على أموره، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره، و إنما تحيا تلك المعاني في ذكرهم و إخبارهم عنها واستعمالهم إياها».[٢]

و يقدم النص السابق تعريفًا لمحددات التواصل من وجهة نظر الجاحظ، فالرسالة هي: «المعاني القائمة في صدور العباد» أما المرسل «العباد» الذي يشير إليه الجاحظ فهو الفرد أو الإنسان في عزلته، وهو ينشد الاتصال، أما المرسل إليه فهو الإنسان الآخر في عزلته: «الذي لا يعرف ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه وخليطه....» أما الشفرة فهي اللغة التي بها تحيا المعاني الخافية في صدر المرسل.[٣]

ولا شك أن الأداء اللغوي - في عمومه -لا يتم له وجود فعلي إلا بوجود طرفين أساسيين، هما: المنشئ والمتلقي، وللأول دوره الإنتاجي، وللثاني دوره الاستهلاكي، أما المادة الخاضعة للإنتاج والاستهلاك – و يقصد بها الرسالة - فقد

(١) الجاحظ: الحيوان. تحقيق عبد السلام هارون. القاهرة، مكتبة الحلبي، ج١، ص ١٣، سيأتي حديث عن الجاحظ وابن جني أيضًا ودورهما في نظرية الاتصال اللغوي، والتفاتهما إلى دور السلوكيات الحركية في التواصل في الفصل الأخير من البحث.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين. القاهرة. المطبعة التجارية، ج١، ٩٠.

(٣) د/ عبد العزيز حمودة: المرايا المقعرة. سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٧ ص ٢٢٣.

تكون ذات مواصفات داخلية، بمعنى أن يكون النظر إلى مواصفاتها بالنظر إلى ذاتها فقط.[١] وتلك هي عناصر نظرية التواصل اللغوي التي تحدث عنها الجاحظ في النص السابق.

وفي موطن ثان يحدد الجاحظ شروط المرسل والرسالة والمتلقي، وذلك في إطار حديثه عن حرفة الكتابة. يقول الجاحظ في كتابه الحيوان: «وينبغي لمن كتب كتابًا ألا يكتبه إلا على أن الناس كلهم له أعداء، وكلهم عالم بالأمور، وكلهم متفرغ له. ثم لا يرضي بذلك حتى يدع كتابه غفلاً، ولا يرضي بالرأي الفطير، فإن لابتداء الكتاب فتنة وعجبًا... وليس الكتاب إلى شيء أحوج منه إلى إفهام معانيه، حتى لا يحتاج السامع لما فيه من الروية، ويحتاج من اللفظ إلى مقدار ما يرتفع به عن ألفاظ السفلة والحشو»[٢].

و في موطن آخر من كتابه «البيان والتبيين» يقدم الجاحظ شروطًا لنجاح عملية التواصل بين المرسل والمتلقي، وهي محاولة قصد بها الربط بين حقيقة المشاعر التي أنتجت الخطاب وتأثيرها في المتلقي، وأن الأمر متوقف في البدء على صدق المبدع، يقول الجاحظ: «الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان».[٣]

عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ):

يتحدث عبد القاهر الجرجاني عن أهمية دور المبدع، وكيانه النفسي في نجاح الرسالة التواصلية يقول: «وجملة الأمر أنه لا يرى (أي كثير من الناس)، النقص يدخل على صاحبه في ذلك إلا من جهة نقصه في علم اللغة، ولا يعلم أن ها هنا دقائق وأسرارًا، طريق العلم بها الروية والفكر، ولطائف مستقاها العقل،

(١) د/ محمد عبد المطلب: قضايا الحداثة عند عبد القاهر – لونجمان ، ١٩٩٥ ص ١٩٨.
(٢) الجاحظ: الحيوان، تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون،١٩٨٣، ج ١، ص ٣٧.
(٣) الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون. القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ج ٤، ص ٢٩.

وخصائص معان ينفرد بها قوم هدوا إليها ودلوا عليها، وكشف لهم عنها، وأنها السبب في أن عرضت المزية في الكلام، ووجب أن يفضل بعضه بعضًا، وأن يبعد الشأو في ذلك، حتى ينتهي الأمر إلى الإعجاز».[١]

ومعنى ذلك أن الإبداع عند عبد القاهر يتطلب من النفس المعاناة والمكابدة، والتأمل لتقديمه في صورة مركبة، ومؤلفة تأليفا يميز مبدعًا عن الآخر، ويتوقف هذا على دور المبدع، الشرط الأول في عملية التواصل[٢].

كذلك يعد الأسلوب عنده: «ضربًا من النظم وطريقة فيه» وهو خاصية مميزة ترتبط بذاتية المبدع ونفسيته، ويحتاج إلى اللغة ليترجم بها هذا الأسلوب والتأمل، وهذا الالتصاق بالذات هو السبب في تفاوت المبدعين، وتباين أساليبهم، فيؤدي مبدع معنى يستحيل على غيره تأديته.

وبالإضافة إلى الشروط السابقة التي قدمها عبد القاهر للمبدع، يضع شرطًا مهمًّا يرتبط بالرسالة، ويلتقي مع فكرة «القصدية»[٣] التي يهتم بها علم لغة النص أو ضمن معايير النصية، يقول عبد القاهر، مؤكدًا على دور المبدع، وأن يكون التناسق أولاً في عقل المبدع وفكره، وبعدهما في الألفاظ، «.... ليس الغرض بنظم الكلام أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالتها، وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل»[٤].

ويقول: «وأما نظم الكلم، فليس الأمر فيه كذلك، لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني، وترتبها على حسب ترتب المعاني في النفس[٥]» ومعنى هذا الكلام

---

(١) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر. ط٢ القاهرة،١٩٨٢ م، ص ٧.

(٢) د/ محمد عبد المطلب: قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني، القاهرة، لونجمان، سنة ١٩٩٧، ص ١٩٧ - ٢٠٠ .

(٣) القصدية أو القصد intentionality وتعني موقف منشئ النص من كون صورة ما من صور اللغة قصد بها أن تكون نصًّا يتمتع بالسبك والالتحام، وأن مثل هذا النص وسيلة من وسائل متابعة خطة معينة للوصول إلى عناية بعينها، ديبو جراند: النص والخطاب والإجراء، ترجمة د/ تمام حسان. ا لقاهرة، عالم الكتب، ١٩٩٨، ص ١٠٣.

(٤) دلائل الإعجاز، ص ٤٩، ٥٠.

(٥) السابق، ص ٤٩.

أن النظم ليس ضم الشيء إلى شيء، كيف جاء واتفق، ولكن يعتبر فيه حال المنظوم، ولذلك كان عندهم نظيرًا للنسج والتأليف والصياغة والبناء، حتى يكون لوضع اللفظ علة تقتضي كونه هناك، وحتى لو وضع في مكان غيره لم يصلح.

ويقابل اهتمام عبد القاهر على أهمية البعد النفسي لدى المبدع اهتمامه بقضية اللفظ والمعنى، حيث يرى أن إقناع الخصوم بأسبقية المعاني العقلية على اللغة يؤدي الدور الأكبر في نجاح التواصل، مؤكدًا على أن اللغة ما هي إلا أداة وظيفية تعبر عن المعاني الباطنية للمبدع: «من حيث إن الألفاظ إذا كانت أوعية للمعاني، فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولاً في النفس، وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولاً في النطق».[١]

ويضع عبد القاهر شروطًا للمبدع يلزمه بها، ليكون ناجحًا في تحقيق تواصلية أعلى مع المتلقي، ومنها ضرورة إلمامه بالمعاني النحوية[٢] وأحكامها، والمعاني النحوية عنده شيء غير علم النحو المعروف، إنها تتجاوز معرفة القواعد النحوية لتشمل بؤر الخطاب و أنساقه ودلالاته المختلفة، إنها مظهر من مظاهر جمالية الخطاب وبراعة التصوير «... فلا ترى كلامًا قد وصف بصحة نظم أو فساد، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة، وذلك الفساد إلى معاني النحو و أحكامه»[٣].

ويشكل «الكلام» عند عبد القاهر في كتابه «دلائل الإعجاز» أهمية قصوى، لكونه يعتبر صلة الوصل بين طرفي عملية التواصل: المرسل والمتلقي، سواء أكان هذا الكلام منطوقًا أم مكتوبًا.

---

(١) السابق، ص ٥٢.

(٢) د/ أحمد النادي: التلقي والتواصل الأدبي، بحث منشور في مجلة عالم الفكر، ع١، مجلد ٣٤،٢٠٠، ص ٦٨١.

(٣) دلائل الإعجاز، ص ٨١، ٨٢.

ويتوقف التواصل هنا على طبيعة الخطاب تركيبًا ودلالة، ولهذا كان اشتغال الجرجاني على الخطاب يسير في اتجاهين اثنين متوازيين: الأول يشمل الحديث عن الخطاب باعتباره بنية وتركيبًا يستدعي مجموعة من الشروط والمكونات التي تجعله بنية منسجمة منسقة.

وقد شملت دراسته في هذا الباب مختلف بنيات الخطاب، بدءًا بأصغر تركيب، الذي هو الجملة البسيطة وصولاً إلى تركيب أكبر يشمل مجموعة من الجمل ضمن نص شعري أو قرآني.

أما الثاني، فانصب حول الدلالة / المعنى، وما تثيره من مشاكل وقضايا خاصة من طرف المتلقي، مما سيدفع بالجرجاني إلى تركيز حديثه عن قضية «معنى المعنى» أو ما يصطلح عليه بالمعنى الأول والمعنى الثاني. ومن ثم يؤكد مسألة تعتبر من آليات تحليل الخطاب في الدرس اللساني الحديث، إنها السياق الحضاري والثقافي، أو الاعتبار التداولي للخطاب.[١]

إلا أن الجانب التطبيقي لنظرية الاتصال اللغوي كان أكثر وضوحًا في كلام النحاة، فالمبدع حين يختار نسقًا لغويًّا فإن وراء هذا الاختيار سببًا كامنًا في فكره ونفسه، بحيث يجيء التفكير بحسب شعوره، كما يتضح من كلام النحاة في بعض المواقف الاتصالية: «ومثله إذا شممت رائحة طيبة قلت: «المسك والله»! أي هو المسك والله! وهذا المسك! وكذلك لو رأيت صورة شخص فصار آية لك على معرفته ذلك الشخص. فإذا رأيته بعد، قلت: «عبد الله وربي» كأنك قلت: ذاك عبد الله أو هذا عبد الله» وجلي أن للتنغيم والشكل الصوتي قيمة في تصوير هذه المشاعر كما سبق[٢].

(١) التلقي والتواصل الأدبي، ص ١٦٧.
(٢) ابن الحاجب: الإيضاح في شرح المفصل، ج ١، ص ٩٤.

كما ربط النحاة بين الغرض والوقع النفسي، يقول الرضي: «إن الإبهام المحوج إلى التفسير إنما كان لأجل التقدير، ومع الإظهار لا إبهام، والغرض من الإبهام ثم التفسير إحداث وقع في النفوس لذلك المبهم؛ لأن النفوس تتشوق إذا سمعت المبهم إلى العلم المقصود منه»[١]، وعلى ذلك فهناك مراعاة للعامل النفسي بحسب الموقف وطبيعة المتلقي[٢].

أطراف الاتصال في التراث العربي:

المتلقي:

يؤكد علماء الأسلوب على ثلاثة أركان رئيسية للتفكير الفني الأسلوبي، المبدع والمتلقي والرسالة.[٣]ويعتبر المتلقي الطرف الثاني في عملية التواصل أو الاتصال اللغوي، وقد كان للبلاغيين العرب دور في الوقوف على خصوصية المتلقي باعتباره طرفًا إنجازيًّا في إتمام عملية التواصل، فالجاحظ يجعل للمتلقي وجودًا - برغم سلبيته - يكاد يتغلب على وجود المبدع، فالمتلقي لديه: «يتأذى بالخشن المؤذي، والفهم يأنس من الكلام بالعدل والصواب الحق، والجائز المعروف المألوف، ويتشوَّف إليه، ويتجلى له، ويستوحش من الكلام الجائر، والخطأ الباطل، والمحال المجهول المنكر، وينفر منه، ويصدأ له»[٤].

وتعبر الفقرة السابقة عن رصد ردود الفعل لدى المتلقي حتى يتأذى بالخشن المؤذي ويستوحش من الكلام الجائر، والخطأ الباطل، وينفر منه ،وقد تحرك الدارسون القدامى في دائرة التلقي تحرُّكًا واسعًا، يكاد يغطي كل مفرداته، بمعنى أنهم لم يتوقفوا عند المتلقي المثالي (العالِم)، بل تجاوزوه إلى من هم أقل منه عِلمًا، أو من هم أعلى منه درجة ومنزلة؛ ومن ثم أخذ التلقي طبيعة جماعية

(١) الرضي: شرح الكافية. القاهرة،١٣٧٥هـ، ج١، ص ١١٧.
(٢) د/ مصطفى عراقي: المعاني النحوية للغة القص في القرآن الكريم. رسالة دكتوراه. كلية دار العلوم. ١٩٩٣، ص ٢٧٧.
(٣) د/ محمد عبد المطلب: البلاغة والأسلوبية. القاهرة، لونجمان، ٢٠٠١، ص ٢٣٤.
(٤) ابن طباطبا العلوي: عيار الشعر ، تحقيق د/ عبد العزيز ناصر المانع، القاهرة، مكتبة الخانجي، ص ٢٠. د. ت.

ترتبط بالمقامات، فلكل مقام مقال، فهناك خطاب يتناسب مع الفئة المخاطبة بحدودها الاجتماعية، والتغلب هنا يكون للمنزلة الاجتماعية أكثر مما يكون للكثرة العددية، ومخالفة هذه الحقيقة دلالة على سوء الرأي، بل قِلَّة العقل[1]؛ لكن المتلقي كان أكثر حضورًا في كتابات الجرجاني، فقد نظر إليه من خلال:

المتلقي ومعنى المعنى:

يؤسس عبد القاهر لقانون النظم من خلال اعتبار اللغة نظام من العلامات، والسمات الدالة على المعاني، وأن الألفاظ لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض.

ويعني ذلك أن عبد القاهر يضع لكل دال مدلولاً، وأن مهمة المتلقي الكشف عن وجوه التعقيد القائمة بين الدال والمدلول، وقد ينجح المتلقي في ذلك بعد الاستعانة بالقرائن والعوامل الخارجية عن الخطاب حيث يعتبر هذا الأمر من منظور الفكر اللغوي التداولي الحديث، يقول عبد القاهر: «... الكلام على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض، أو لا ترى أنك إذا قلت: «هو كثير رماد القدر»، أو قلت: «طويل النجاد»، أو قلت في امرأة «نؤوم الضحى» فإنك في جميع ذلك لا تفيد غرضك الذي تعني من مجرد اللفظ، ولكن يدل اللفظ على معناه الذي يوجبه ظاهره، ثم يعقل السامع من ذلك المعنى على سبيل الاستدلال معنى ثانيًا هو غرضك، كمعرفتك من «كثير رماد القدر» أنه مضياف، ومن «طويل النجاد» أنه طويل القامة، ومن «نؤوم الضحى» في المرأة أنها مترفة مخدومة، لها من يكفيها أمرها...».[2]

(١) د/ محمد عبد المطلب: قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني، ص ٢٣٦.
(٢) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ٥٣٩.

والمتلقي عندما يقوم بفك شفرة المعنى يفترض فيه أن يكون مدركًا لمرجعية الخطاب ومنتجه، حيث ينبني هذا الأمر على السياق العام والسياق الخاص للخطاب، وهي الفكرة نفسها التي قدمها جاكبسون: «ففي أي حدث للاتصال اللفظي يبث المرسل رسالة إلى المرسل إليه، وتحتاج هذه الرسالة كي تصبح فعالة إلى سياق تشير إليه، حيث يقبل هذا السياق أن يضع المرسل إليه عليه يده».[1]

المتلقي وتأثير الخطاب:

كان الجرجاني على وعي كبير بأهمية عنصر التأثير في المتلقي، حين ميز بين النص المتين المحكم صياغة وسبكًا وتصديرًا، وغيره من النصوص التي لا تهز أحاسيس المتلقي، يقول عبد القاهر: «واعلم أن من الكلام ما أنت ترى المزية في نظمه، والحسن كالأجزاء من الصِّبغ تتلاحق، وينضم بعضها إلى بعض حتى تكثر في العين، فأنت لذلك لا تكبر شأن صاحبه، ولا تقضي له بالحذق والأُستاذية (...) حتى تستوفي القطعة، وتأتي على عدة أبيات....، ومنه ما أنت ترى الحسن يهجم عليك منه دفعةً، ويأتيك منه ما يملأ العين ضربةً، حتى تعرف من البيت الواحد مكان الرجل من الفضل وموضعه من الحذق».[2] وإذا كان كلام عبد القاهر ينطبق على الشعر، فهو كذلك ينطبق على النثر.

كذلك تعد قوة تأثير الخطاب معيارًا من معايير التفاضل بين النصوص وأصناف الخطاب، وبالرجوع إلى تراثنا النقدي نلمح أن ثمة إجماعًا على كون الوظيفة التأثيرية خاصية من خصائص تلقي النص الشعري، وهي: «فكرة تعود جذورها في الثقافة العربية إلى النص الديني الذي ألح على سحر البلاغة، في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام: «إن من البيان لسحرا» بل إن النص القرآني ببلاغته المعجزة قام على تحقيق الوظيفة التأثيرية، وقد برزت في الردود الصادرة

(١) د/ محمد العبد:العبارة والإشارة، دراسة في نظرية الاتصال اللغوي، ص ٣٥.
(٢) عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ٨٨.

عن بلغاء قريش عندما استمعوا إلى آي التنزيل؛ يروى في هذا الصدد أن الوليد بن المغيرة وصف الكلام القرآني بـ: «إن له لحلاوة و إن عليه لطلاوة، و إن أسفله لمغدق و إن أعلاه لمثمر...».[1]

إن مجموعة الأسس السابقة، والتي وضعها اللغويون العرب تلتقي مع الأساس اللغوي الذي اعتمد عليه جاكبسون في وضعه لعناصر النظرية التواصلية اللغوية، والذي ينبني على أن كل حَدث لغوي يتضمن رسالة، وأربعة عناصر مرتبطة بها هي: المرسِل والمتلقي، ومحتوى الرسالة، والكود أو الشفرة المستعملة فيها. أما علاقة هذه العناصر بعضها ببعض فهي متنوعة متغيرة، فقد يحدث أحيانًا أن تعمل الوظائف المختلفة لها بشكل منعزل، لكن المألوف أن نجد مجموعة من الوظائف متماسكة مترابطة.[2] و إذا كان المخاطب هو الطرف الثاني في العملية الاتصالية ، فإن الأسلوب يغدو طاقة ضاغطة على المخاطب أو المتلقي تحمله لا على فهم محتوى رسالته فحسب، بل على تقمص التجربة التي تنقلها الرسالة والإفادة منها.

الرسالة:

هي من جملة شروط نظرية التواصل التي وضعها اللغويون، ولا يقوم الحدث الاتصالي إلا بوجود رسالة، فانتفاء الرسالة يعني عدم وجود مرسل أو متلق، و يعبر عن الرسالة بالنص أو الخطاب المنطوق كان أو المكتوب.

والرسالة هي مضمون السلوك الاتصالي، حيث يرسل الإنسان و يستقبل كميات ضخمة ومتنوعة من الرسائل، بعض هذه الرسائل يتسم بالخصوصية (مثل: الحركة والإيماءة والإشارة والابتسامة والنظر)، وبعضها الآخر يتسم بالعمومية مثل: الندوات والمحاضرات والمؤتمرات ورسائل الصحف والمجلات والراديو

(١) د/ أحمد النادي: التلقي والتواصل الأدبي، ص ٢٠٠.
(٢) د/ صلاح فضل: نظرية البنائية. الكويت، عالم المعرفة، سنة ١٩٩٣، ص ٣٨٣.

والتليفزيون والسينما، وبعض الرسائل يتم نقلها بقصد، ورسائل أخرى يتم التعرض لها بالمصادفة، وكلما كان هناك تفاعل وفهم مشترك بين المرسل والمتلقي، وكلما استطاع المتلقي أن يستوقف المرسل لمزيد من الفهم، اكتسبت الرسالة فعالية أكبر.

لقد كان للغويين العرب إسهامات في شروط نجاح الرسالة التواصلية، وأن تتوافق الكفاية اللغوية للرسالة وسلامتها نحويًّا مع شروط الموقف الاتصالي الاجتماعي، ففي رسالة بشر بن المعتمر، يقول الجاحظ: «والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معنى الخاصة، وكذلك ليس ينفع بأن يكون من معاني العامة، و إنما مدار الشرف على الصواب، و إحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال»[1].

والمعنى أن يختار المرسل لكل مقام مقالاً، من ذلك على سبيل المثال أن يراعي المرسل مكان الاتصال، أي المكان الذي تقع فيه حالة الاتصال كالمكتب أو الشارع أو البلاط الملكي، من ذلك مثلاً ما يروى أن المعتصم لما فرغ من بناء قصره بالميدان الذي كان للعباسية، جلس فيه، وجمع الناس من أهله وأصحابه، وأمر أن يلبس الناس كلهم الديباج، وجعل سريره في الإيوان المنقوش بالفسيفساء الذي كان في صدره صورة العنقاء، فجلس على سرير مرصع بأنواع الجواهر، وجعل على رأسه التاج الذي فيه الدرة اليتيمة، وفي الإيوان آسرة أبنوس عن يمينه وعن يساره من عند السرير الذي عليه المعتصم إلى باب الإيوان، فكلما دخل رجل رتبه هو بنفسه في الموضع الذي يراه، فما رأي الناس أحسن من ذلك اليوم.

وفي مثل مكان الاتصال السابق، والذي هيأه المعتصم لا يقبل أن تطرح موضوعات بعينها، فلا يليق أن ينشد إسحاق بن إبراهيم مطلع قصيدته:

يا دارُ غَيَّرك البلي فَمَحاكِ يا ليتَ شِعري ما الذي أبلاكِ؟

(١) الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي ، القاهرة، ج١، ص ١٣٦.

فعندما ينشد مثل هذا القول في هذا المكان لن يكون هناك تفاعل من الحضور، حتى تطير المعتصم وتغامز الناس، وعجبوا كيف ذهب على إسحاق مع فهمه وعلمه وطول خدمته للملوك، قال أبو محمد أحد من شهد اليوم: «فأقمنا يومنا هذا وانصرفنا، فما عاد منا اثنان إلى ذلك المجلس، وخرج المعتصم إلى سُرّ من رأى (سامراء) وخرب القصر».[١]

المحددات الموقفية الاتصالية في التراث العربي:

بالإضافة إلى وعي اللغويين العرب، بدور المرسل والمتلقي في نجاح العملية التواصلية، جاءت الروايات عن السلوكيات الكلامية في المواقف الاتصالية الفعلية لتؤكد معرفة القدماء بالمحددات الأساسية للموقف الاتصالي اللغوي، ومن هذه المحددات محدد مقام الصوت وهو محدد يرتبط أكثر بالاتصال اللفظي المنطوق، وهو يعني الخصائص الصوتية فوق التركيبية، والتي يؤديها المرسل ليؤثر من خلال تغيير طبقة الصوت أو درجة النغمة في المتلقي، من ذلك ما رواه ابن الأثير عن الحجاج بن يوسف الثقفي أنه: « كان إذا صعد المنبر تلفح بمطرفه، ثم تكلم رويدًا فلا يكاد يسمع، ثم يزيد في الكلام حتى يخرج يده من مطرفه، ويزجر الزجرة، فيفزع بها أقصى من في المسجد».[٢]

بل وجد أيضًا في التراث العربي إسهامًا لأهمية الصوت وبخاصة الفاصلة القرآنية، التي يعرفها القاضي أبو بكر بقوله: « هي حروف متشاكلة في المقاطع يقع بها إفهام المعاني».[٣] وهي أحد أبرز أشكال الأداء الصوتي التي امتاز بها القرآن الكريم، والصوت هنا لايمتاز بأهميته الدلالية أو الإيحائية فقط، ولكنه يمتاز أيضًا بأهميته التجنيسية، وهذا ما التفت إليه علماء القرآن منذ البداية،

(١) نقلًا عن النص والخطاب والاتصال، ص ٧٧ - ٧٨ والنص من كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية. بيروت، ١٩٨٦، ص ٤٣١ وما بعدها.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر. د.ت. ج١، ص ١٧٩.

(٣) الزركشي : البرهان في علوم القرآن، ص ١٩٩.

فأطلقوا اصطلاح الفاصلة على نهايات الآيات حرصًا منهم على تأكيد تميز القرآن الكريم عن غيره من فنون القول الشائعة[١]. بل إن البنية الصوتية القرآنية التي حددت معالمها بدقة في مصنفات القوم دليل على العناية الباذخة بالقيم الإيحائية التي ينتجها الأداء الدقيق لأصوات القرآن، ودور هذه الأصوات في إنجاز الدلالة، وتمييز مستويات المتلقي ، وهذا مايجب أن تتنبه له أي نظرية قرائية وبخاصة في ظل تنامي القيم الإيحائية للأصوات، وتحقيق نوع من التعادلية المفقودة بين المقروء والمسموع أو بين الثقافة الشفهية والثقافة المكتوبة.

محدد الرؤية: ذكر ابن جني (٢٩٣ هـ) قال: «قال بعض مشايخنا - رحمهم الله - أنا لا أحسن أن أكلم إنسانًا في الظلمة»[٢]، ويعني ذلك أن التواصل في النور أولى من التواصل في الظلمة، دعمًا للرسائل الحركية والإشارات الجسمية، حيث يرى المرسل في وجه سامعه أثر الكلام، ويتاح لأحدهما آنذاك: «أن يرى فاعلية إشارات الآخر، وحركاته وتعبيراته في توجيه مجرى الخطاب وسياسة الموقف الاتصالي على نحو أو آخر».[٣]

وروي عن خالد بن صفوان أنه كان يقول: «لا تكون بليغًا حتى تكلم أمتك السوداء في الليلة الظلماء في الحاجة المهمة بما تتكلم به في نادي قومك».[٤]

ويختص هذا القول بالتواصل اللفظي، ويفهم من النص احتياج المشاركين في الاتصال إلى رؤية أحدهما الآخر، لما في الرؤية من غناء عن بعض ما يلزم الاتصال.[٥]

(١) محمد عبد الباسط: النص والخطاب ، قراءة في علوم القرآن، ص ٢٠٠.
(٢) ابن جني: الخصائص، تحقيق محمد علي النجار: بيروت، دار الكتاب العربي، ج١، ص ٢٤٧. د. ت.
(٣) د/ محمد العبد: العبارة والإشارة، ص ١٣٦.
(٤) المبرد: الكامل في اللغة والأدب. بيروت، مكتبة المعارف، ج١، ص ٢٤٦.
(٥) العبارة والإشارة، ص ١٣٦.

محدد النظر والإصغاء: يدخل أيضًا في صميم الموقف الاتصالي محدد النظر والإصغاء، ويعني إقبال كل من المرسل والمتلقي على بعضهما البعض من خلال رمي الطرف والإقبال والتوسعة في المكان، والإصغاء، روي عن ابن عباس - رحمه الله - قال: «لجليسي على ثلاث: أن أرميه بطرفي إذا أقبل، وأوسع له إذا جلس، وأصغي إليه إذا حدَّث».[١]

من خلال العرض السابق نستطيع القول إن التراث العربي كان على قدر كبير من الفهم لوظيفة اللغة التواصلية ودور المرسل والمتلقي في الوصول إلى خطاب فعال، وأن التأريخ للسلوكيات الاتصالية في الفكر اللغوي ينبغي أن يبدأ من التراث العربي منذ منتصف القرن الثالث على وجه التقريب[٢].

نظرية الاتصال عند اللغويين الغربيين:[٣]

ترجع الإسهامات الكبرى في نظرية الاتصال اللغوي إلى الستينيات من القرن الماضي، حيث قدمت المدارس اللغوية الغربية تصنيفات، ومخططات مبكرة لميادين الاتصال، ويمكن أن ننظر إلى نظرية الاتصال والتقعيد لها غربيًّا من خلال التصنيفات الآتية: تصنيف مالينوفسكي (١٩٣٢) واهتم في دراسته للغة بجانبين هامين، الجانب الأول وهو الوظيفة التداولية للغة، ويعني بها الاستعمالات

---

(١) الكامل: ج١، ص ١٠٢ - ١٠٣.

(٢) بالإضافة إلى هذه المحددات الاتصالية هناك محدد الحركات والتصويتات السلبية، ومحدد العرف والعادة، ومحدد دلالة الحال ومحدد الإبقاء على إقامة الاتصال ومحدد السكوت، انظر العبارة والإشارة، ص ١٣٥ - ١٤٠، ١٥٤.

(٣) عرف الفيلسوف اليوناني أرسطو الاتصال بأنه البحث عن كل الوسائل المتاحة للإغراء والإقناع، ففي كتابه (الخطابة) أوضح أن الاتصال هو القدرة على النظر في كل ما يوصل إلى الإقناع في أية مسألة من المسائل، بل يُقسِّم الاتصال إلى ثلاثة عناصر هي:
(الخطيب ، الجمهور، الخُطبة) ويركز أرسطو في الموقف الاتصالي لديه على ما يلي:
أن الخطيب لابد أن يدرك ما يعتمل في نفوس الجمهور من قيم ومبادئ وأعراف ومعايير وسنن اجتماعية تؤثر في إدراك الجمهور وطريقة تفسيره للرسالة.
أن الخطبة (القضية) تعد عند أرسطو هي أساس الاتصال؛ حيث يسعى المرسل (الخطيب) إلى إبلاغ الجمهور برسالة ما بهدف توصيل ونقل معلومات معينة يريد أن يفهمها الجمهور كما هي، ويُركِّز أرسطو على ضرورة دراسة خصائص وسمات الجمهور المستهدف (المتلقين) حتى ينجح في توصيل رسالة (خطبته). د/ علي محمد شمو: الاتصال الدولي والتكنولوجيا الحديثة. السودان، دار الكتب القومية للثقافة ص ٢٧.

العملية للغة في ضوء العديد من مواقف الاتصال، وقد قسمها «مالينوفسكي» إلى استعمالات فاعلة واستعمالات سردية.

أما الجانب الثاني فهو الوظيفة السحرية للغة، وهي الاستعمالات اللغوية في الاحتفالات الرسمية أو الدينية في ثقافة بعينها.[١]

والواضح أن « مالينوفسكي» لم يكن لغويًّا، ولكنه كان مهتمًّا في الأساس بقضايا الاتصال، ومن ثم انصب تركيزه على وظيفة اللغة السحرية في سياقاتها المختلفة.[٢]

تصنيف جاكبسون (١٩٦٠) قدم تصنيفه من خلال تحديد العوامل التي تشكل الحدث الاتصالي اللفظي، ففي أي حدث للاتصال اللفظي، يبث المرسِل رسالة إلى المرسل إليه، وتحتاج هذه الرسالة -من أجل أن تصبح فعالة -إلى السياق، و يقبل هذا السياق أن يتعرفه المرسل إليه أو يشارك فيه.

وتحتاج الرسالة إلى الشفرة المشتركة كليًّا -أو جزئيًّا على الأقل - بين المرسل والمرسل إليه، وهي تحتاج أخيرًا إلى القناة الفيزيائية والارتباط النفسي بين المرسل والمرسل إليه. وهذان الأمران يجعلان المرسل والمرسل إليه قادرين على الدخول في الاتصال.

و يلاحظ أن كل عامل من هذه العوامل الستة يكون وظيفة لغوية بعينها، و يشير جاكبسون إلى أنه بالرغم من التمييز بين مظاهر رئيسة ستة للغة، فربما أمكننا العثور على رسائل لفظية، لا تحقق إلا وظيفة واحدة فقط؛ فالتعددية لا تكمن في احتكار وظيفة ما من تلك الوظائف المتعددة، إنما تكمن في نظام الترتيب المتباين للوظائف.[٣] وقد قدم جاكبسون للغة نفسها ستة وظائف أخرى

(١) نقلًا عن العبارة والإشارة، دراسة في نظرية الاتصال اللغوي ، ص ٣٣.
(٢) السابق.
(٣) العبارة والإشارة، ص ٣٥.

وهي الوظيفة المرجعية، والتي يلجأ إليها المرسل لينقل للمتلقي معلومات وأخبارًا تحيل على الواقع ، والوظيفة التعبيرية وتتدخل في هذه الوظيفة ذات المرسل وذلك من خلال انفعالاته وتعابيره الذاتية ومواقفه وميوله الشخصية والإيديولوجية. والوظيفة التأثيرية تنصب على المتلقي ، ويهدف المرسل من ورائها إلى التأثير على مواقف أو سلوكيات وأفكار المرسل إليه ، والوظيفة الشعرية أو الجمالية التي يبحث من خلالها الخصائص الشعرية أو الجمالية ثم الوظيفة الإفهامية التي ينبغي من خلالها إفهما المتلقي، ثم الوظيفة الوصفية والتي تهتم بوصف الغامض وشرح الملبس.

تصنيف هاليداي (١٩٩٠):استفاد في النظر إلى اللغة من الوظائف الثلاث التي قدمها «مالينوفسكي» للغة، وهي الوظيفة التأثيرية، التي تعمل فيها اللغة صيغة للضبط الاجتماعي (صيغة الخطاب) والوظيفة التعبيرية تلك التي يستخدمها المتكلم للتعبير عن مشاعره وأحاسيسه (وسيلة الخطاب) والوظيفة الفكرية التي تصبح فيها اللغة وسيلة لنقل الأفكار الاتصالية، فقد جعل الوظيفة مبدأ أساسيًّا من مبادئ اللغة، ويرى أن الباحثين السابقين قد بنوا إطارًا تصوريًّا بمصطلحات غير لغوية، وأنهم قد نظروا إلى اللغة من الخارج، وجعلوا تلك النظرة مدخلاً لتفسير الطرائق المختلفة التي يستعمل بها الناس اللغة. وهو يرى كذلك أن مفهوم الوظيفة عند هؤلاء الباحثين يرادف مفهوم الاستعمال.[١]

وتدلنا التصنيفات السابقة على أن النظرية بأصولها كانت موجودة باعتبار وظيفة اللغة، التي قدم لها اللغويون أكثر من تعريف، سواء في التراث العربي أو الغربي.

(١) هاليداي ورقية حسن حيث يشير« الاستعمال» إلى التراكيب اللغوية المختلفة بوصفها وسائل لا غايات، أي أنها رداء تعتمره الوظائف التواصلية التي يتبادلها المرسل والمتلقي داخل خطاب ما. أما «الاستخدام» فيقتصر معناه على التراكيب اللغوية المختلفة بوصفها قوالب صرفية ونحوية ودلالية تؤدي وظيفتها الصورية داخل نص من النصوص وفقًا لأطر قواعدية محددة سلفًا. إذا، فالفرق بين الاستعمال والاستخدام هو نفسه الفرق بين الخطاب و النص ، انظر: Halliday ,M.A.K. Mcintosh, A. And Strevens, P. (1965): The linguistic Sciences and language Teaching. Longman:london. Hassan ,R. (1971):»Code, Register and Social Dialect» in B. Bernstein (ed .)Class, .Codes and Control. Vol.2, Routledge and Kegan Paul:london

وتلتقي أكثر التصنيفات التي قدمها اللغويون الغربيون مع المحددات التواصلية التي تحدث عنها العلماء العرب فيكتبهم، كذلك تلتقي العوامل التي يضمها الاتصال اللفظي مع ما قدمه الجاحظ من تعريف للرسالة والمرسل والمستقبل والشفرة.

بل إننا نجد ابن طباطبا (٢٢٣ هـ) في كتابه «عيار الشعر» يحتفي بفكرة التأليف ودور المبدع وأهمية الرسالة ودورها التأثيري فيقول: «وينبغي للشاعر أن يتأمل تأليف شعره، وتنسيق أبياته، ويقف على حسن تجاورها أو قبحه، فيلائم بينها لتنتظم له معانيها، ويتصل كلامه فيها، ولا يجعل بين ما قد ابتدأ وصفه، وبين تمامه فضلاً من حشو ليس ما هو فيه»[١] ففي هذا النص تأكيد أيضًا على أهمية القصدية في الأداء، مع تحقيق عنصر المقبولية لدى المتلقي، وهما من عناصر النصية التي تحدث عنها اللغويون مؤخرًا.

دور السياق في تحليل الخطاب

يدور علم تحليل الخطاب على قاعدتين مهمتين، تفكيك الخطاب الذي هو وجه من وجوه تحليله، ولكنه يتميز بإرادة الكشف عن المضمنات التي تقولها بنية الكلام، وإنتاج الخطاب وهو الوجه العملي من المعرفة، وما هو أيضًا إلا واجهة أخرى من إحكام قواعد التواصل اللغوي.[٢]

وللوصول إلى كُنه الاثنتين - يأتي السياق الذي يؤدي الدور الأكبر في ذلك، إذ لا يغفل اللغويون أثره في تحديد الدلالة، مما يكون له دور في استنباط المعنى المتحقق للنصوص، فلا يمكن الوصول إلى هذا المعنى من أبنية النصوص

(١) ابن طباطبا: عيار الشعر، تحقيق د/ عبد العزيز ناصر المانع. القاهرة، مكتبة الخانجي، ص ٢٠٩، د. ت.
(٢) د/عبد السلام المسدي: السياسة وسلطة اللغة، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية للنشر، سنة ٢٠٠٨، ص ٩٥.

بمفردها، وعلى ذلك كان الاهتمام بالسياق الذي يسهم في جلاء المعنى، و « بوصفه شرطًا اتصاليا في الإنتاج»[١].

ويذهب براون ويول إلى القول بأنه: « بقدر ما يعرف المحلل أكثر ما يمكن من خصائص السياق بقدر ما يحتمل أن يكون قادرًا على التنبؤ بما يحتمل أن يقال»[٢].

ولا يتوقف تحليل الخطاب على قدرة المحلل أو المتلقي فقط، ولكن الخطاب القابل للفهم والتأويل هو الخطاب القابل لأن يوضع في سياقه، إذ كثيرًا ما يكون المتلقي أمام خطاب بسيط من حيث لغته، ولكنه يتضمن قرائن تجعله غامضًا غير مفهوم بدون الإحاطة بسياقه، ومن ثم فإن للسياق دورًا فعالًا في تواصلية الخطاب، وفي انسجامه بالأساس[٣].

وإذا كان السياق يؤدي ضرورة حتمية في الكشف عن استراتيجيات الخطاب عمومًا، فإن ضرورته تكون لازمة في الكشف عن الخطاب ، وكيف تم إنتاجه، وكيف تم استقباله.

يقول فان دايك إن كل سياق عبارة عن اتجاه مجرى الأحداث، وقد يكون اتجاه الأحداث هذا دالاً على حالة ابتدائية، وعلى أحوال وسطى وحالة نهائية، أما الحالة الابتدائية المتابعة لمجرى الأحداث فتسمى بالسياق السابق، وتسمى الحالة الوسطى بالسياق المصاحب، أما الحالة النهائية فتسمى بالسياق اللاحق، وقد يسمى السياق المصاحب بالسياق الواقعي، وهو السياق الذي تستوفى فيه

(١) فولفجانج هاينيه: مدخل إلى علم اللغة النصي، ترجمة فالح العجمي، السعودية، سنة ١٩٩٦، ص ٥٧.
(٢) براون ويول: تحليل الخطاب، ترجمة محمد لطفي الزليطي ومنير التريكي. الرياض، سنة ١٩٩٧، ص ٣٥.
(٣) د/ محمد خطابي: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب. بيروت، سنة ١٩٨٣ ، ص ٥٩.

خواص الآن أو هنا»[١]. ومن الصعب أن نفهم رسالة ما دون أن نعلم ماذا يحدث الآن، وما لم نكن على علم بالأداء الصوتي والمرئي المصاحب لها أيضًا[٢].

وفي تحليل الخطاب يكون من الضروري أن نهتم بما هو أكثر من السياق المصاحب للنصوص مثل التاريخ الثقافي الكامن في عقل المشتركين، والكامن في نوع النشاط الذي يمارسونه، ومن الضروري أن نهتم بما يحدث الآن فقط، وكذلك نهتم بالخلفية الثقافية للمشتركين، ونعني[٣] « إننا حيال أي خطاب في لحظته المباشرة الأولى أو في لحظة إنشائه و الإصداح به، نبحث عن المعنى فنكتشف أنه لا يوجد في البناء النحوي للكلام، ولا في دلالة الألفاظ المعجمية، ولا يوجد في السياق التركيبي بين الجمل السابقة والجمل اللاحقة، ولا هو موجود في المقام التداولي باعتبار الروابط العالقة بين المتكلم والسامعين، ولكنه يوجد خارج الحدث اللغوي التواصلي تمامًا، إنه موجود بين شاشة الأحداث الجارية وخزانة الوقائع الماضية، إنه مزروع على أرض الذاكرة المتحركة، إنه بين حقيقة تاريخية مضت وحقيقة تريد أن تنشأ»[٤] حيث إن: « أي سياق قابل لأن نعدد خصائصه، وأنه بإمكان المحلل أن يختار الخصائص الضرورية لوصف حدث تواصلي خاص»[٥].بل إن الاتجاهات اللغوية الحديثة تذهب إلى أبعد من ذلك، عندما تهتم بالخطاب التداولي، أي بالعلاقات المطردة الموجودة بين بنيات النص والسياق، ويعني هذا من ناحية أولى أننا يجب أن نوضح أن أية خصائص للخطاب تتحدد بواسطة بنية المتداولين للغة والمستعملين لها، وبواسطة ضروب إنجاز قوى فعل الكلام وتناول المعلومات في كل تحاور.

---

(١) فان دايك: النص والسياق، ص ٢٥٨.
(٢) د/ حسام فرج: نظرية علم النص، ص ٢٤.
(٣) Hallida & Hassan: Language, context and text. p.6.

(٤) د/ عبد السلام المسدي: السياسة وسلطة اللغة، ص ٢٠.
(٥) د/ محمد خطابي: لسانيات النص ص ٥٣.

ومن ناحية ثانية فإن بنيات خطاب ما، عندما يتلفظ في التحاور، يمكن أن تنشئ هي بذاتها جزءًا من السياق التواصلي[١]. إن محلل الخطاب عندما يعالج مادته اللغوية بوصفها لغة تواصلية يأتي دور السياق في عملية الفهم من خلال التفاعل بين الخطاب والسياق، فثمة وحدات لغوية تتطلب أكثر من غيرها معلومات عن السياق لتيسر الفهم، وهي أدوات الربط المتواصل أو المستأنف مثل، هنا، الآن، أنا، أنت، هذا، ذلك..

فإذا أردنا أن نفهم مدلول هذه الوحدات عندما ترد في مقطع خطابي استوجب منا على الأقل معرفة هوية المتكلم والمتلقي والإطار الزماني والمكاني للحدث اللغوي، فتلك الأدوات تحيل إلى مكونات السياق الاتصالي[٢].

وللسياق أنواع منها السياق السابق[٣]: حيث يعتبر هذا السياق عند فان دايك تقييدًا للطاقة التأويلية لدى المتلقي، ويؤدي دورًا كبيرًا في انسجام الخطاب، وكان ليفيس هو أول من أشار إلى هذا السياق ودوره[٤] ويقصد به مفردات الموقف الاجتماعي المتحصل لدى المرسل حالة شروعه في كتابة مقالاته أو رسائله.

وتضم مفردات هذا الموقف الاجتماعي الجوانب الثقافية التي أثرت في الكاتب، بالإضافة إلى البعد الأيديولوجي. والخطاب هو الذي يعطي الإشارات على ذلك، فمن خلال قراءة الخطاب يستطيع محلل الخطاب أن يقف على أطرافه. إن الخطابَ مدونة «كلامية» وحدث مكاني تواصلي تفاعلي مغلق في سمته الكتابية، توالدي في انبثاقه وتناسله، وهو حدث كلامي له وظائف متعددة[٥]، وهو خطاب يخترق وجه العالم والأيديولوجيا[٦].وهناك سياق الموقف أو الموقف

(١) فان دايك: النص والسياق، ص ٢٧٥.
(٢) براون ويول: تحليل الخطاب، ص ٥٣، فان ديك: علم النص (مدخل متداخل الاختصاصات) ص ١٣٦، روبيرت دي بوجراند: مدخل إلى علم لغة النص ت. إلهام أبو غزالة، وعلي خليل حمد، ص ٢١٥.
(٣) د/ حسام أحمد فرج: نظرية علم النص، ص٢٤.
(٤) د/ محمد خطابي. لسانيات النص، ص ٥٦.
(٥) د/ محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري ، الدار البيضاء. المركز الثقافي العربي،١٩٨٦، ص ١٢٠.
(٦) براون ويول: علم النص، ترجمة فريد الزاهي، دارتوبقال.ط٢ المغرب، ط ١٩٧١، ص١٤.

الذي يتم فيه الاتصال حيث يرى مالينوفيسكي (١٩٤٣م) أنه من المهم أن نعطي اهتمامًا أكبر ليس لمحيط الخطاب فقط، ولكن للخلفية الثقافية له، وأي نوع من التفاعل اللغوي أو التبادل الحواري أو البث الأيديولوجي في الخطاب لا يمثله فقط مجموع الرؤى أو الأصوات المحيطة بالحدث ولكن أيضًا: « كل التاريخ الثقافي الكامن في عقل المشاركين في الخطاب (المتكلم - المستمع) والكامن في نوع النشاط الذي يمارسونه».[١]

ولا يشتمل الخطاب فقط على شروط اجتماعية متمثلة في شروط الإنتاج الاجتماعية وشروط التأويل الاجتماعية. «إنه يضم هذه الشروط مرتبطة بثلاثة مستويات متباينة من التنظيم الاجتماعي هي مستوى الموقع الاجتماعي، أو المحيط الاجتماعي المباشر الذي يجرى فيه الخطاب، ومستوى المؤسسة الاجتماعية التي تشكل منبتًا واسعًا للخطاب، ومستوى المجتمع ككل»[٢].

مجال الخطاب

يقصد به طبيعة الحدث الذي ينطلق منه الخطاب، أو طبيعة النشاط الاجتماعي المتصل بالكلام، ويتلاقى حوله المشاركون[٣]هذا النشاط الاجتماعي يحدث الآن عبر ثنائية المرسل والمتلقي، وباقي أطراف العملية الاتصالية، إذ إن سيطرة مجال دلالي ما على غالبية الخطاب يعطي هيمنة لهذا المجال الدلالي في مجمل الخطاب، ويميل المتلقي بدوره إلى أن يحدد بنفسه درجة سرعة تلقي الخطاب وكثافته، محققًا من ذلك تخفيف العبء عن ذاكرته[٤] ولا يختلف عند

---

(١) Halliday &ruqaiya hasan: Language, context and text. p.60.

(٢) نورمان فيركلو: الخطاب بوصفه ممارسة اجتماعية، ترجمة رشاد عبد القادر، مجلة الكرمل، مؤسسة الكرمل الثقافية: فلسطين. عدد ٦٤، سنة ٢٠٠٠، ص ١٥٨، ولا يقوم سياق الموقف بتوضيح معنى اللفظ فقط، بل نجده يسد في الدلالة مسد الكلام المحذوف وقد أشار سيبويه إلى ذلك حيث قال: ومن ذلك.. أن ترى رجلاً قد أوقع أمرًا أو تعرض له فتقول: «متعرضًا لِعنَن لم يَعْنِه.. أي دنا من هذا الأمر متعرضًا لعنن لم يعنه، وترك ذكر الفعل لما يرى من الحال». سيبويه الكتاب. ج١، ص ٢٧٢، د. فريد عوض حيدر: علم الدلالة، دراسة نظرية وتطبيقية – القاهرة. مكتبة الآداب، ص ١٦١.

(٣) Halliday &ruqaiga hasan: Language, context and text. p.45, 46.

(٤) د/ سعيد بحيري: علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات. القاهرة، لونجمان، ١٩٩٧، ص٣٩٢.

فندايك مفهوم مجال أو موضوع الخطاب عن مفهوم البنية الكبرى حيث يقول: « إن وصف مفهوم موضوع الخطاب أو جزء من الخطاب مطابق مع وصف البنيات الكلية. أي أن أي بنية كلية ما لمتتالية من الجمل هي تمثيل دلالي من نوع ما»[١].

إن تحديد مجال الخطاب قبل البدء في التحليل يحيلنا إلى القول بأن: «فهم النص لا يبدأ من قراءة النص فقط، بل بتوجيه تداولي مسبق، فالمتلقي ينشِّط قبل بدء عملية التلقي الفعلية عناصر معينة من معرفته التفاعلية، بحيث تجيز له الإدراك لموقف الفعل والمشاركين فيه، والإطار الاجتماعي المميز له»[٢]. حيث يقسم البعض مجال الخطاب إلى قسمين، خطاب متخصص وخطاب غير متخصص.

ويندرج تحت الخطاب المتخصص المعارف التي يغلب المصطلح على مفرداتها (مثل العلوم والرياضيات والجغرافيا وعلم النفس والاقتصاد والسياسة) حيث يكتسب المصطلح دلالة محددة في سجل لغوي بعينه. وبذلك يكون ثقافة خاصة مقصورة على العاملين في حقل من حقول المعرفة بغض النظر عن انتمائهم اللغوي.

أما الخطاب غير المتخصص فهو الذي ينتمي بكل عناصره إلى مجموع الناطقين باللغة في مجتمع لغوي ما بغض النظر عن وضعهم الاجتماعي أو مستواهم التعليمي أو انتماءاتهم المهنية.

(١) د/ محمد خطابي: لسانيات النص، ص ١٤.
(٢) محمد البطل: تحليل الخطاب و الترجمة ، القاهرة، لونجمان، سنة ٢٠١٠، ص ٨٧- ٩٦.